

العدوان على سوريا والقانون الدولي أ.د. أحلام بيضون

تتعرض الدولة السورية منذ سبع سنوات لأبشع أنواع العدوان، بشكل مباشر أو غير مباشر، من قبل مجموعة من الدول، على رأسها الولايات المتحدة الأميركية (1). سنحاول مناقشة هذا الموضوع من وجهة نظر القانون الدولي، بشكل مختصر في النقاط التالية:

1- ما يجري في سوريا يعتبر حسب القانون الدولي عدوانا وليس حربا، فالعدوان هو القيام بغزو أو احتلال، أو أي شكل من أشكال الإعتداء العسكري أو التدخل ضد سيادة بلد، سواء ضد إقليمها، أو شعبها أو حكومتها، أو مصالحها.

أما الحرب، فيكون بعد إعلان عن شنه، وهو يجري بين جيوش بعمليات عسكرية مختلفة، يتوجب خلالها على القوى العسكرية المتنازعة احترام اتفاقيات لاهاي وجنيف فيما يتعلق بسير العمليات العسكرية، والمحافظة على المدنيين، وعلى البنية والمؤسسات المدنية، ومراعات حقوق الأسرى والجرحى. وتنتهي بانتصار أحد الطرفين، أو بوقف لإطلاق النار وعقد اتفاقات سلام لها شروطها بين الجانبين.

ورغم أن القانون الدولي يدعو إلى حل النزاعات سلميا، وعدم اللجوء إلى القوة في العلاقات بين الدول، لأن ذلك يهدد الأمن والسلم الدوليين، إلا أن الاختلاف يبقى واضحا بين الحرب والعدوان، حيث أن العدوان هو عمل عسكري مسبق ومن طرف واحد ضد سيادة دولة ما، ما يعطي تلك الدولة الأخيرة حق الدفاع الشرعي عن النفس.

إن العدوان هو من أكبر الجرائم الدولية، بل هو يحتويها كلها.

ما يحصل في سوريا، هو جريمة عدوان موصوف، سواء من خلال التدخل المباشر لدول أجنبية مثل الولايات المتحدة، أو تركيا، أو من خلال عدوان غير مباشر من خلال تمويل وتسليح وإرسال إرهابيين، وعصابات مسلحة للقيام بأعمال قتل وتدمير وإخلال بالأمن داخل سوريا، وهو ما قامت به الولايات المتحدة، وتركيا وقطر والسعودية، والإمارات العربية والأردن وفرنسا وبريطانيا، وغيرها

من الدول، حسب تقارير ودراسات مختلفة، وخاصة حسب ما صرح به وزير خارجية قطر السابق بن حمد آل ثاني (1)

2- إن ما حصل في سوريا هو جرائم دولية كبرى، سواء ما يتعلق بالعدوان ضد سيادة الدولة السورية بشكل عام، إن بالنسبة لشن العدوان، أو تحريض السكان ضد بعضهم البعض، أو منع الشعب السوري من تقرير مصيره، أو التدخل في شؤون الدولة السورية الداخلية ومحاولة إزاحة رئيسها، أو تغيير نظامها السياسي؛ أو ما يعتبر جرائم حرب، إن من حيث استهداف المدنيين بالتقتيل والقصف، أو تدمير البيوت والمصالح، أو لمؤسسات الدولة العامة والخاصة، أو خطف، واحتجاز وتنكيل بالمحتجزين والأسرى، أو امتهان للكرامات أو تعذيب وسبي وتجديد إجباري، ونزوح قصري، أو تجويع وقطع للمياه والطاقة، أو نهب للثروات الوطنية وتدمير للآثار.

3- إن الجرائم التي حصلت في سوريا أو غيرها من البلاد العربية، تعتبر جرائم إبادة وجرائم ضد الإنسانية، ولا يمر عليها الزمن، وليس هناك حدود مكانية في ملاحقة ومعقبة المسؤولين عن ارتكاب تلك الجرائم.

إن عدم إدانة تلك الجرائم من قبل مجلس الأمن الدولي، واتخاذ قرار بملاحقة المسؤولين ومعاقبتهم يعتبر انحيازاً غير مبرر، وفشل ضريع في إداء المهمة التي لأنشأ من أجلها، وهي تثبيت الأمن والسلم الدوليين، وحماية سيادة الدول ومعاقبة المنتهكين للقانون الدولي.

إن ملاحقة ومعاقبة الجرائم التي حصلت في سوريا وغيرها من البلدان العربية التي استهدفت يمكن أن تتم أمام محكمة الجرائم الدولية، أو أمام محاكم جرائية وطنية، أو محاكم دولية جرائية خاصة، تنزل بالمسؤولين أشد العقوبات، كم تغرم الدول المسؤولة، وتلزمها بدفع التعويضات سواء للأشخاص المتضررين أو ورثتهم، أو سواء للدولة السورية (2).

.....

(1) أنظر التقرير الدوري الأول أيلول/ سبتمبر 2017، المنشور من قبل "شبكة حماية ضحايا الحرب"
<http://www.alhoukoul.com/wkaltt-aliestkhbarat-almrkzett-wierhab-alhrwb-alsrett-alamerkett>

(2) تصريح رئيس الوزراء القطري:

سأل رئيس الوزراء القطري السابق حمد بن جاسم بن جابر آل ثاني إذا كانت بلاده ستكون هي من أدخلت إيران وتركيا إلى المنطقة إذا ما استعتهما من أجل أن تدافع عن نفسها. وتابع "هل هذا ما يريدون دفع قطر إليه؟ السيادة هي أهم شيء بالنسبة لنا. وهذا ما سندافع عنه حتى الدقيقة الأخيرة."

وخلال مقابلة مع قناة "PBS" الأميركية، قال بن جاسم إن القطريين تفاجأوا بأنه بعد مشاركة الأمير القطري تميم بن حمد آل ثاني في قمة الرياض الأخيرة التي حضرها الرئيس الأميركي دونالد ترامب، انتهى الكلام عن عزل إيران بالعمل على عزل قطر، والقول إن علاقاتها مع إيران مميزة وإنها تدعم الإرهاب وتموله.

وأشار بن جاسم إلى أنه من الناحية التجارية، فإن تعامل قطر مع إيران لا يساوي سوى نسبة واحد بالألف مقارنة مع علاقات بقية دول الخليج (الفارسي) مع إيران.

وفي نفس السياق، قال بن جاسم إن قطر تقف في سوريا في موقع مختلف مع إيران، مضيفاً "نعم واصلنا العمل على علاقات جيدة مع إيران، لأنها جارة وننتشارك سوياً حقلاً غاز وهذا أمر طبيعي .. لكن هل علاقتنا مع إيران موجّهة ضد دول مجلس التعاون الخليجي؟ هذا بالطبع غير صحيح."

ثم سأل بن جاسم "من يحاول في الخليج (الفارسي) أن يعزل إيران؟ هل قطعوا العلاقات الدبلوماسية مع هذا البلد أو اقترحوا ذلك في مجلس التعاون الخليجي وعارضنا نحن ذلك؟ فليأتوا بهذا الاقتراح إلى المجلس وسنكون جزءاً منه. لكن هذا لا يحصل اليوم، لقد فعلوا ذلك مع قطر." ورداً على سؤال بشأن دعم قطر لإيران، أجاب بن جاسم "القول إن قطر تدعم إيران هي مزحة كبيرة .. لا يوجد أي حدث دعمنا خلاله إيران .. لدينا علاقات طبيعية مع هذا البلد لكننا لسنا على رأس سلم لائحة من لديهم علاقات جيدة مع إيران. لو كنّا كذلك لما كنا نواجه الإيرانيين في سوريا .. ليست هذه المشكلة، المشكلة أن هناك بعض الدول تريد إملاء سياساتها على دول أخرى، لكننا دولة ذات سيادة، ولدينا الحق في ممارسة سياستنا الخاصة إذا لم تتعارض مع القانون الدولي."

وبشأن اتهام قطر بدعم الإرهاب، ذكر بن جاسم أن بلاده كانت شريكة للأميركيين منذ ما بعد 11 أيلول/ سبتمبر 2001، قائلاً إن الجيش الأميركي أتى إلى قطر واستخدم كل التسهيلات الخاصة بالقطريين.

وأضاف رئيس الوزراء القطري السابق أن بلاده منذ ذلك الوقت شاركت الولايات المتحدة القتال في أفغانستان والعراق واليمن.

وأكد بن جاسم أنه لا يوجد أساس صلب للاتهامات بحق قطر، وقال "تريد حالات محددة. لا أحد يقول فلان مول فلاناً."

وبخصوص لائحة الإرهاب الأخيرة التي أعلنت عنها الدول المقاطعة لقطر مؤخراً وقالت إنها مرتبطة بالدوحة، سأل المسؤول القطري السابق "هل أرسلوها لنا ورفضنا التعامل مع الأمر؟ لم نر هذه اللائحة سابقاً. ربما بعض الذين ذكرت أسمائهم يجب فعلاً متابعتهم، لكن هل هذه هي الطريقة الصحيحة للتعامل مع الأمر؟ أين القانون الدولي؟" وتابع "منعوا عنا الغذاء، منعوا لقاء العائلات المتواجدة في البلدين .. منعوا الطيران المدني والسفن .. هذا الحصار تم تطبيقه على غزة، أنت وآخرون كنتم تقولون حينها إن هذا ليس جيداً."

أما بشأن سوريا، أكد بن جاسم أن "الجميع ارتكب الأخطاء هناك بعد انطلاق الثورة السورية"، بمن فيهم الأميركيون، وأضاف "عملنا في غرفتيّ عمليّات. واحدة في الأردن والثانية في تركيا. شارك العديد من الجهات في هاتين الغرفتين، كالسعودية والإمارات والولايات المتحدة وحلفاء آخرين. في تركيا نفس الشيء."

وتابع بن جاسم "مع الوقت، اكتشفنا أن بعض الجماعات لديها أجنداث مختلفة وقمنا باستبعادها واحدة تلو الأخرى"، وتوجّه بن جاسم إلى المذيع الأميركي قائلاً "أنتم دعمتم المجموعات الخطأ أحياناً"، ثم قال "لكن هل فعلنا هذا عمداً؟ هذا ليس صحيحاً."

وفي هذا الإطار، رأى بن جاسم أنه لو نجح الإرهابيون في سوريا لأثروا إلى دول الخليج (الفارسي)، مشدداً على أن هذه الدول لم تكن خارج خطر الإرهابيين أبداً.

وعن الإخوان المسلمين، قال رئيس الوزراء القطري السابق (إن الإخوان المسلمون) هو اسم كبير، ويشمل جماعات مختلفة. بعضهم جزء من مكون البلد الذي يتواجدون فيه، ويشاركون في البرلمان في بعض البلدان. بعضهم يستخدمون العنف ونحل لا نتفق مع هؤلاء. بعضهم مسلمون."

وتابع بن جاسم "أنت تعرف أنني شخصياً ضد كل هذه الجماعات. لكن بالنسبة لقطر، كيف ندعمهم نحن؟ الشعب المصري انتخبهم في مصر. السيسي والجيش المصري طردوهم خارجاً. حسناً، ألم يكن الأمير القطري أول من دعم السيسي؟ لكنهم كانوا بحاجة لأن يوجهوا اللوم لأحد ما بسبب كثرة مشاكلهم الداخلية."

بن جاسم سأل "هل تعتقد أن قطر تستطيع أن تدفع مصر إلى الحالة الاقتصادية التي تعاني منها اليوم بالرغم من مليارات الدولارات التي أعطيت لهذا البلد؟"

وذكر بن جاسم أن بلاده هي أكبر داعم اليوم لتونس مع أن حكومتها ليست من الإخوان المسلمين.

وبشأن العلاقة بين قطر وحركة "حماس"، قال بن جاسم "ساعدنا حماس في غزة في ملف الكهرباء وهذا أمر معلن، الجميع يعلم ذلك بمن فيهم الإسرائيليون. ساعدنا في بناء بعض البيوت التي تهدمت عام 2005 وبناء مستشفيات"، لافتاً إلى أنه في تلك الفترة قامت دول خليجية وعربية أخرى برصد الأموال لأجل غزة أيضاً.

وتابع بن جاسم "قبل إجراء الانتخابات الأولى في فلسطين، طلب منا الأميركيون أن نتحدث إلى حماس لدفعها باتجاه المشاركة في الانتخابات."

أما بخصوص استضافة الدوحة لعناصر من حركة "طالبان"، فأشار بن جاسم إلى أن الولايات المتحدة طلبت من قطر استضافة خمسة عناصر من الحركة لكي يقوموا بمفاوضات، وتابع "شعبنا سيكون سعيداً إذا أرادت الولايات المتحدة استرجاعهم". ورأى رئيس الوزراء القطري السابق أن الشعب القطري بات اليوم يدعم أمير البلاد بشكل كامل، لأنه بات يعلم أنه كان صادقاً وحاول أن يبني علاقات مميزة مع جيران قطر منذ أن أتى إلى الحكم، مؤكداً أن الدول المقاطعة لقطر أحبطت الشعب القطري وغالبية الشعب الخليجي التي رأى بن جاسم أنها لا توافق على الإجراءات التي تم اتخاذها بحق بلاده.

وسأل بن جاسم "هناك ميثاق لمجلس التعاون .. هل اجتمع هذا المجلس واتهم قطر بشيء ما؟ لم يحصل أي شيء من هذا." ورأى بن جاسم أنه لن يُعوّل على مستقبل مجلس التعاون الخليجي إذا كانت أكبر دول هذا المجلس تفعل ما تريد من دون العودة إليه. وتابع بن جاسم "هذا التصرف بحق قطر سيغيّر الكثير من الأوضاع داخل دول مجلس التعاون الخليجي، لأنّ ما يحصل مع قطر اليوم يمكن أن يحصل مع أية دولة خليجية أخرى. هذا يعني أنّ أي قائد من الدول الخليجية يمكن أن يستيقظ في الصباح ويقرّر أن يغلق الحدود مع طرف آخر بسبب أو بدون سبب. هذا يعني أنه لا يوجد تماسك بين هذه الدول الست." واعتبر بن جاسم أن المشكلة الأهم اليوم هي أن الولايات المتحدة التي تُعدّ حليفاً للجهتين، ليست واضحة بكيفية عملها على معالجة الأزمة المستجدة، وقال "يجب أن يكونوا أكثر عدلاً في نظرهم للأزمة." ووجه بن جاسم نقداً لترامب بقوله إنّ الأخير يصدر أحكاماً على قطر بدون الوقوف على الأدلة الصحيحة، مضيفاً "نتوقع من حلفائنا أن يكونوا عادلين لا أن يساعوننا". لكن بن جاسم أعرب عن ثقته بأنّ الولايات المتحدة ستتخذ في النهاية الموقف الصحيح. وقال بن جاسم إنه من خلال وساطة الكويت والولايات المتحدة سيظهر أن الاتهامات بحق قطر ليس لها أساس. وعندما سأله المذيع عن المكان الذي سيتوجه إليه بعد المقابلة، أجاب بن جاسم أنه في واشنطن لزيارة بعض الأصدقاء، ثم سيعود بعدها إلى بلده.

المصدر: قناة "PBS" الأميركية - وكالات، الأربعاء ١٤ يونيو ٢٠١٧ - ٥٢:٠٤ بتوقيت غرينتش / قناة العالم الأحد 29 أكتوبر 2017

(3) فيما يتعلق بقواعد القانون الدولي المطبقة على الحالة، يمكن العودة إلى ميثاق الأمم المتحدة فيما يتعلق بتحريم العدوان، وإلى اتفاقيات لاهاي وجنيف المتعلقة بسير العمليات العسكرية، وإلى معاهدة روما الخاصة بالمعكمة الجنائية الدولية، أو مبادئ محكمتي نيرنبرغ وتوكيو، أو المحاكم الجنائية الخاصة بيوغوسلافيا السابقة وغيرها.